مملكة بيت – ياقين ودورها السياسي والحضاري في الألف الأول ق.م

م. د. وسن جاسم محمد
جامعة بغداد – كلية الآداب

الملخص

تدور أحداث هذا البحث حول مملكة بيت– ياقين الآرامية، وهي إحدى الممالك أو المشايخ الكلدية التي نزحت من شبه الجزيرة العربية باتجاه بلاد الرافدين وتحديدًا نحو ضفة نهر دجلة في أقصى النهاية الجنوبية للعراق وامتدت لتصل مرابعها إلى الخليج العربي. وتعدّ هذه المملكة من حيث المساحة وعدد السكان من أكبر المشايخ مقارنةً بغيرها من البيوتات والمشايخ الأخرى، وقد توالى على حكمها عددٌ من الملوك كان لهم دورٌ مهمٌّ في إدارة شؤون هذه المشيخة سواء السياسية أم الحضارية (العمرانية والدينية)، وهذا ما أوضحته النصوص التذكارية التي تركها لنا الملوك الأشوريون عبر حولياتهم، وكان أشهر ملوك مشيخة أو مملكة بيت– ياقين هو (مردوخ– بلادان)، الذي استمر بالتصدي للملوك الآشوريين، وهذا العداء المستمر بين الآشوريين ومملكة بيت_ياقين ما هو إلا محاولة بيت– ياقين المستمرة وبالتعاون مع ملوك بلاد عيلام لزعزعة النفوذ الآشوري في بلاد بابل ممّا أدى إلى نهايتها على يد الملوك الآشوريين.

الكلمات المفتاحية: ياقين، عقنو، ناكيتو _دي بينا، كلديا، ملك بلاد البحر، الاراميين.

Al Malweah for Archaeological and Historical Studies, Vol 9, Issue 28, May 2022
P-ISSN: 2413-1326 \ E-ISSN: 2708-602X

The Kingdom of Bit-Yakin and its political and civilized role in the first millennium B.C.

Wasan Jasim Mohammed
University of Baghdad- College of Arts
wasanjasim@coart.uobagdad.edu.iq

Abstract

Events are taking place in this research are about the Aramaic kingdom of Bit-Yaqin (Bit-Yakin alaramyh). It is one of the Chaldean kingdoms or sheikhdoms which displaced from the Arabian peuthern Iraq, and stretched to reach the Arab Gulf. Bit-Yaqin Kingdom, considers the largest sheikhdom whether in area or the number of populations. It ruled by number of kings got an important role in running the affairs of this chiefdom whether the political and civilized (architectural and religious) matters; and this was clear in the memorial texts which the Assyrian kings left to us by their chronicles. (Murdoch-Bladan, was the most well-known kings of Bit-Yaqin sheikhdom or kingdom, who continued fighting the Assyrian kings. This continued hostility between Assyrians and Bit-Yaqin kingdom, was an attempt by that sheikhdom to shake and destabilizing the Assyrian influence in the country of Babylon by cooperating with Elam kings; and that is what led this sheikhdom to meet its and on the hands of Assyrian kings.

Keywords: Yakin, Uqnu, Nakito- de bina, Chaldia, King of the sea country, Arameans.

المقدمة

شهدت أرض بلاد الرافدين في عصورها القديمة عدّة هجراتٍ بشريةٍ، نتج عنها بعد مدةٍ من الزمن قيام ممالك سياسية حكمت كلّ البلاد أو جزءًا منها، ومارست تأثيرًا سياسيًا وحضاريًا داخل البلاد وخارجها، وكان من بين تلك الممالك هي مملكة بيت – ياقين الآرامية الأصل التي تأسست ما يقارب القرن التاسع قبل الميلاد، ومن ثم صارت من أقوى وأكبر الممالك الكلدانية في جنوب بلاد الرافدين حتى أنّها وقفت كثيرًا بوجه القوة الآشورية التي أرادت أنْ تقضي على هذه المملكة؛ لفرض سيطرتها بشكلٍ تامٍ على بلاد بابل وكان من قوة هذه المملكة أنْ استطاع أحد أشهر ملوكها، وهو (مردوخ–ابلا–ادينا)، من فرض سيطرته على بابل وإعلان نفسه حاكمًا عليها في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد.

وفضلاً عن التأثير السياسي فقد مارست هذه المملكة بحكم موقعها تأثيرًا اقتصاديًا بسيطرتها على الطرق التجارية البرية والنهرية التي تربط بلاد الرافدين مع مناطق الخليج العربي، فضلاً عن نشاطها العمراني الذي تمثل بخاصية بناء عدّة معابد للآلهة. وممّا تقدّم يظهر لنا أهمية الدور السياسي والحضاري الذي قامت به مملكة بيت–ياقين وبذلك فإننا سنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على تاريخ هذه المملكة بعدّة محاور، المحور الأول التمهيد الذي يتطرق إلى أصول شعب بيت–ياقين، وجذور تأسيس المملكة، والمحور الثاني سنتطرق فيه عن حكام مملكة بيت–ياقين الذين اعتلوا عرش بيت– ياكين ونشاطاتهم السياسية، اما المحور الثالث فسنتطرق إلى أهم الحملات العسكرية التي قادها ملوك آشور والمحور الرابع والأخير سنتحدث فيه عن المنجزات الحضارية والعمرانية لحكام هذه المملكة.

أولاً: التمهيد:

تعدّ القبائل الآرامية من الشعوب السامية والجزرية التي جاءت من الجزيرة العربية باتجاه بلاد سوريا ثم استوطنت بلاد الرافدين في بدايات الألف الأول قبل الميلاد [١]،وقد تعددت الآراء حول أصلهم من بينها الرأي القائل بأنّهم من أصولٍ جزريةٍ وأنّهم دخلوا بلاد الرافدين في هجراتٍ متتاليةٍ مشابهةٍ لهجرات مَنْ سبقهم من الأكديين والأموريين وغيرهم[٢]، إلا أنَّ هذه الآراء في الحقيقة لا تتعدى كونها فرضيات لا يمكن تأكيدها أو نفيها بشكلٍ قاطعٍ لتبقى حقيقة أصولهم مبهمة [٣]، ففي مسألة تتبع الباحثين للفظة (آرام) نجد أنّها ذُكرت في إحدى نصوص الملك الأكدي نرام–سين(٢٢٩١–٢٢٥٥ق–م)، التي يشير فيها إلى انتصاره على شيخ آرام، ويرد في نصّ آخر اسم مدينة باللفظة (آرام)، التي حدّد موقعها على الضفة الشرقية من نهر دجلة، إذ كانت بالقرب من أشنونا[٤]، وعلى الرغم من أنَّ الدكتور علي أبو عساف، يفترض أنَّ مدينة "آرام" هذه قد أسست على يد الأسلاف الآراميين[٥]، إلا أنّنا لا نملك دليلاً يثبت صحة هذا الادعاء فيما عدا التشابه في التسمية بين مدينة "آرام" من جهة والقبائل الآرامية من جهةٍ أخرى.

أما ذكر القبائل الآرامية بشكلٍ صريحٍ فقد ورد في كتابات الملوك الآشوريون منذ أواخر القرن العاشر قبل الميلاد [٦] ورسائل العمارنة التي تحدثت عن قبائل "الاخلامو الآرامية" على أنَّ الإشارة لهذه القبائل بتسمية الاخلامو قد سبقت إضافة تسمية "الآراميون" لهم[٧]، وبناءً على ذلك فقد حدّد الباحثون وقت ظهورهم بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد[٨].

وتتألف القبائل الآرامية من مشايخ تعرف كلاً منها باسم "بيت"، من بين هذه القبائل بيت–داكوري، وبيت– اموكاني، وبيت– عديني، وبيت– ياكين[٩]، التي كانت أكبر هذه البيوتات من حيث العدد والمساحة، وعلى الرغم من انتشار هذه القبائل في مساحاتٍ متفرقةٍ وواسعةٍ ما بين سوريا وبلاد الرافدين، إلا أنّها لم تتمكن من تأسيس كيانٍ سياسيّ موحدٍ وقويّ على غرار المملكة الآشورية، ولعلّ ذلك يعود في الأساس إلى دأب الملوك الآشوريون على كبح جماح هذه القبائل باستمرار، الأمر الذي منعهم بدوره من الامتداد والتوسع على حساب بلاد اشو[١٠].

واتصفت الحضارة الآرامية في أنَّها مزيجٌ من الحضارات التي سبقتها في مواقع استيطانها، إذ اكتسبت رموز فنونها وديانتها من الحضارات البابلية، والآشورية، والحورية، والحثية [١١]، غير أنّها انمازت بلغةٍ ذات أبجديةٍ ونحوٍ سهلٍ مكنها من الانتشار على نطاقٍ واسعٍ ولمدةٍ طويلةٍ، حتى يمكن القول إنّها غدت لغةً عالميةً استعملها الآشوريون وجعلوها لغةً رسميةً، وكذلك الحال في العصر البابلي الحديث، إذ استعملت بالمعاملات التجارية إلى جانب اللغة الآشورية،

أيضًا كتب التلمود البابلي وكتب الصابئة المندائيين وأسفارهم باللغة الآرامية، فضلا عن استعمالها من قبل الفرس الأخمينيين في المخاطبات مع الدول المجاورة(١٢).

وتعدّ قبيلة "بيت–ياكين"، من أشهر وأهم القبائل الكلدانية التي استوطنت منطقة الأهوار في الجزء الجنوب الغربي من بلاد الرافدين، فضلاً عن السواحل الغربية للخليج العربي حتى دلمون (البحرين)، وأنَّ قبيلة "بيت–ياقين" التي استوطنت على ساحل الخليج، هي إحدى القبائل الآرامية التي كان لها دورٌ بارزٌ في النزاعات مع بلاد آشور نظرًا لأهمية موقعها الجغرافي. وقد نشبت النزاعات؛ بسبب قيام قبيلة "بيت– ياقين" بقطع طرق الإمدادات والطرق التجارية بين الخليج العربي وملوخا، فكان لابدَّ من السيطرة على هذه القبيلة وإخضاعها لاستعادة السيطرة على المناطق والطرق التجارية. إلا أنَّ قبيلة "بيت– ياقين" تمكنت في بعض الأحيان من استغلال فترات الضعف والتدهور الداخلي التي جثمت على بلاد آشور، لتتمكن من الاتساع والسيطرة على مناطق شاسعة ضمن رقعة استيطانها الجغرافية، حتى أنَّها استطاعت أخيرًا السيطرة على بلاد بابل وتولي مقاليد إدارة الحكم فيها على يد الملك الآرامي مردوك– ابلا – ايدينا الثاني، أو المعروف باسم (مردوخ–بلادان)(١٣).

ووفقا لما ورد في حوليات الملك سنحاريب، كان شمش– شمو –اوكن –Samas Sumu–Ukin)، محرضًا للشعب الكلدي على الثورة والتمرد ضد الآشوريين، إلا أنَّ بعض الكلديين عرفوا بميولهم الموالية لآشور، في عهد آشور بانيبال (٦٦٨–٦٢٧ق–م). كذلك يبدو لنا أنَّ بيت – ياقين كان لهم دورٌ رئيسٌ في اصطفافهم مع الجانب المتمرد، بزعامة نابو– بل – شوماتي (Nabu–bel–Sumati)، وهو أحد أفراد العائلة الحاكمة لقبيلة بيت– ياقين. إذًا ومن استقراء تتابع الأحداث التاريخية لقبيلة "بيت– ياقين" من علاقاتها مع بلاد آشور وعدائهم المستمر ضد حكام هذه القبيلة؛ كانت في معظم الأحيان تذكر باسم "سكان القطر البحري"(١٤). وقد ادّعى سكان مدينة كيسك (Kissik)، التي كانت تقع ضمن أراضي بيت– ياقين، أنَّ الآراميين كانوا يكنون لهم الكراهية؛ لموالاتهم لآشور، والمقصود بالآراميين هنا هم "بيت– ياكين"(١٥).

أما سبب إطلاق تسمية سكان" القطر البحري" على قبيلة "بيت– ياقين" فيأتي من موقعهم الجغرافي الذي تسوده تجمعات مائية واسعة من أهوار ومستنقعات (قد اشتملت على معظم القطاع الجنوبي من منطقة السهل الرسوبي، ضمن مساحةٍ واسعةٍ جدًا من منطقة الأهوار)، فضلاً عن وقوع الخليج العربي ضمن تلك الرقعة؛ ونظرًا لما تشكّله طبيعة هكذا منطقة من صعوبةٍ بالغةٍ في تغلغلها غير القاطنين فيها، وعُدّ القطر البحري القاعدة التقليدية والمأوى والملجأ

الذي يتحامى به شعب "بيت– ياقين" وحكامه من أعداء الآراميين. ومن هنا حمل مردوخ–بلادان لقب (ملك سلالة القطر البحري)، وهو اللقب الذي أطلقه عليه سنحاريب [١٦]. وكذلك تمّت الإشارة إليه في كتابات تجلات بليزر (مردوك–ابلا–ادينا)، حاكم قبيلة "بيت – ياكين"، ملكًا لـ "بلاد القطر البحري"[١٧].

وقد ورد في الكتابات الملكية التي تعود إلى العصر الآشوري الحديث مصطلح "مراتو" الذي يشير إلى محتوى مائيّ كبيرٍ ألا وهو الخليج العربي، وهي المنطقة التي استقرت فيها قبيلة "بيت– ياقين"؛ فضلاً عن أنَّه ورد في كتابات شلمنصر الثالث(٨٥٨–١٨٢٤ق–م)، الذي أطلق تسمية: بحر بلاد الكلدان(mat– Kaldn) إشارةً إلى الخليج العربي؛ والذي ذكر أيضًا بتسمية "مراتو"، أي: البحر المر، في كتابات سرجون (شر–كين) الآشوري، الذي أشار فيها إلى" بيت – ياقين"، على أنّها البلاد الواقعة على شاطئ البحر المر (مراتو) (Marratu)[١٨].

ثانيًا: الملوك الذين اعتلوا عرش قبيلة بيت ياقين:

١– **ايريبا – مردوك(Eriba-Marduk)** : أحد الملوك الذين حكموا بابل كان تسلسله الثالث عشر من بين الملوك الذين حكموا بابل في العصر الآشوري الحديث، وعلى الرغم من عدم معرفة الظروف التي أدّت إلى اعتلاء الملك البابلي ايريبا – مردوك، إلا أنّه كان ملكًا على بلاد بابل ما لا يقل عن تسعة أعوامٍ، وينتهي حكمه في مرحلة ما قبل عام (٧٦٠ق–م)، ويرجّح أنَّ ابن مردوك – شاكين – شومي، أحد أفراد قبيلة "بيت – ياقين" الآرامية في "بلاد البحر"، ولاسيما بعد العثور على إحدى الأختام الموجودة حاليًا في المتحف البريطاني، نقشًا يحمل اسم شخصٍ يُدعى (مردوك –شاكين– شومي)، ينتمي للقبيلة الآرامية نفسها، وعلى هذا الأساس يرجّح أنْ يعود إلى والد ايريبا–مردوك، وقد وصفه سجل السلالة على أنَّه الفرد الوحيد من سلالة "بلاد البحر"[١٩]. الذي كان له الفضل الكبير في إعادة الاستقرار لسكان بابل، وحصل على لقب (واضع أسس البلاد)، ومن الجدير بالذكر أنَّ هذا اللقب لا يمنح إلا للحكام البارزين في بابل[٢٠].

٢– **مردوك – ابلا – ادينا الثاني (Marduk–apal–iddina)** (–ذُكر اسمه في الكتاب المقدس بـ (مردوخ– بلادان)، إذ يعود في نسبه إلى (ايريبا – مردوك)، ووصفه الأخير بأنَّه وضع أسسًا قويةً للبلاد، بمعنى أنّه قام بتنظيم شؤون البلاد الإدارية وتوحيد بلاد بابل بعد مدّةٍ من الفوضى والاضطرابات التي مرّت بها بلاد بابل. تنسب قائمة الملوك عهدان منفصلان من الحكم لـ(مردوك – ابلا – ايدينا) إذ تمتد مدّة حكمه الأولى نحو (١٢ عامًا) (٧٢١–٧٠٩ق.م) وتمتد الفترة الثانية تسعة أشهر (٧٠٣ق–م)، ووصفته النصوص الآشورية بأنّه "ملك

بلاد البحر" (Sar mat Tam–Tim) استغل (مردوك –ابلا – ايدينا) المشاكل الداخلية التي جرت في بلاد آشور عند وفاة شلمنصر الخامس (٧٢٧–٧٢٢ق–م)، لينتزع بابل من سيطرة حكم الآشوريين، ثم يشرع بحكمه للمرة الأولى على بلاد بابل بأكملها بعد فشل محاولات الملك الآشوري سرجون الثاني في التعامل مع بابل وحلفائهم من العيلاميين، نقل اهتمامه نحو أمورٍ أخرى في مملكته شغلته حتى عام (٧١٠ق–م)، الذي فيه اجتاح بابل مجددًا.

وتمكنت القوات الآشورية آنذاك من دفع (مردوك– ابلا – ايدينا) خارج بابل وإعادته إلى دور–ياكين، عاصمة قبيلته التي حاصروها عام (٧٠٩–٧٠٧ق–م)، حينها سقطت (دور – ياقين) وهرب (مردوك – ابلا– ايدينا) إلى عيلام، وأحكم سرجون سيطرته على مدينة بابل طيلة مدّة حكمه (٧٢١–٧٠٥ق–م)[٢١].

٣– مردوك – زاكيزي –شومي الثاني: بعد اعتلاء الملك سنحاريب (٧٠٤–٦٨١ق–م) عرش آشور وبابل جرى تمردٌ في بابل من (مردوك – زاكيزي –شومي الثاني)، إذ تمكّن من الاستيلاء على العرش البابلي، إلا أنَّ فترة حكمه كانت قصيرةً جدًا لم تتجاوز الشهر من تاريخ توليه العرش وحلّ محلّه الملك (مردوك – ابلا – ايدينا الثاني)، الذي عاد مسرعًا من بلاد عيلام لتوليه العرش البابلي، وحكم (مردوك – ابلا – ايدينا)، هذه المرة تسعة أشهر قبل أنْ يتوجه الملك سنحاريب زحفًا في حملةٍ عسكريةٍ نحو المناطق الجنوبية، أرغمه فيها على الهرب مجددًا إلى أهوار بلاد البحر، وفي عام(٧٠٠ق–م) أرسل ملك آشور قواته لتتولى أمره هناك، إلا أنَّه هرب إلى مدينة ناكيتو ((Nagite) التي تقع في إحدى جزر منطقة الأهوار، وهي على الأرجح في أهوار عيلام. وبذلك يكون هذا آخر ذكرٍ يرد في النصوص التي تتعلق بالملك (مردوك –ابلاد–ايدينا)[٢٢].

ثالثًا: أبرز الحملات العسكرية للملوك الآشوريين على بيت ياقين:

أولاً: حملات الملك الآشوري سرجون الثاني

اعتلى سرجون الثاني عرش بلاد آشور عام (٧٢١ق–م) بعد فترةٍ قصيرةٍ من وفاة شلمنصر الخامس في أواخر عام (٧٢٢ق–م) أثناء الوقت الذي انشغل فيه سرجون الثاني، بتعزيز سلطته أثناء سنوات عهده الأولى، ولاسيما انشغاله في محاربة الآراميين في سورية، إذ كان مسار حملاته يشمل مناطق مختلفة منها فلسطين، ومصر، والاراراتو، وبلاد ألمانيين، والأناضول، وكليكيا. بعد أنْ انتهى من تحقيق هدفه في السيطرة على تلك المناطق توجّه نحو بلاد بابل[٢٣]، وهذا ما ورد في النص الآتي:

((جند سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ق-م) قوات أجنبية وضمّها لفيالقه الملكية لجيشه تتابعًا وكما يأتي: في عام تتويجه (٧٢١ق-م)، ضمّ إلى جيشه (٥٠) عربة من السامريين؛ وفي حملته الأولى على شمال سوريا وتحديدًا على مدينة قارقار تحديدًا، اشتركت مع قواته (٢٠٠) عربة (٦٠٠) من الخيالة، من القوات الأجنبية؛ في حملته الخامسة على كركميش، اشتركت مع قواته (٥٠) عربة، (٢٠٠) من الخيالة و(٣٠٠٠) من المشاة، من القوات الأجنبية؛ في حملته التاسعة على تابال، اشتركت من القوات الأجنبية مع جيشه (١٠٠)عربة؛ في حملته الثالثة عشرة، اشتركت مع جيشه من القوات الأجنبية (٢٠,٠٠٠) من رامي سهام (١٠,٠٠٠) من حملة الرماح والدروع، جميعهم من بيت ياقين))[٢٤].

أثناء انشغال سرجون الثاني أعلن مردوخ – بلادان، نفسه ملكًا على بابل والمناطق القبلية المحيطة بها في الجنوب. وعلى إثر ذلك أشهر العصيان ضده ونجح في فصل بابل وأرض البحر عن سلطة آشور مدة اثنا عشر عامًا (٧٢١-٧٠٩ق-م)، وفي عام (٧١٠ق-م) شرع سرجون الثاني بحملةٍ عسكريةٍ على بابل[٢٥]. كما يوضح في النص الآتي:

((في العام الثاني عشر من الحكم، مردوك –ابلا- ايدينا (مردوك- بلادان)، ابن ياقين، ملك ملك كالدو (كلديا)، الذي يقع مقره عند شاطئ البحر الشرقي المنعزل (الخليج الفارسي)، وضع ثقته بالبحر المر وأمواجه القوية، وخرق القسم واللعنة (التي جرت باسم) الآلهة العظام، ومنع الأتاوة. خومبان- نيكاش العيلامي، جاء لنجدته. قبائل روا، وهيندارو، واياتبورو، وبوكودو، وكلّ أقوام سوتـــو الصحراوية. حرضهم ضدي، استعد للمعركة وانحدر نحو بلاد سومر وأكد. سيطر على بابل لمدة اثنى عشر عامًا))[٢٦].

((مدينة سيد الآلهة، وحكمها، ضد إرادة (قلب) الإله العظيم. مردوك، الإله العظيم، رأى أعمال شعب كلدوا السيئة، والتي كرهها، وقضى أنْ يأخذ منه صولجانه الملكي وعرشه. أنا سرجون، الملك المتواضع، خصني (اختارني)، من بين الكل الأمراء ومجدني (رفع رأسي) وإخراج قوم كلدو المعادين والأشرار من بلاد سومر وأكد، جعل أسلحتي قوية. عند أمر الإله مردوك العظيم أطلقت عرباتي، وأعددت الحملة وأعطيت الأمر بالتقدم نحو شعب كلدو المعادي والشرير))[٢٧].

ويوضّح النصّ تحريض مردوك – ابلا- ادينا، لكلّ أقوام السوتو الصحراوية ضد الملك الآشوري سرجون الثاني الذي كان مشغولاً بتعزيز سلطانه ولاسيما السنوات الأولى من حكمه سادت بلاد آشور الاضطرابات السياسية، ويبدو واضحًا من النص أنَّ بلاد بابل قد تمكنت من استعادة استقلالها لمدة اثني عشر سنة، إلا أنَّ سرجون الثاني وبكلّ تواضعٍ ينفذ أوامر الإله

العظيم مردوك الذي ساند سرجون ضد قبيلة كلدو ويقوم بإخراجهم من بلاد سومر وأكد بعد أنْ وصفهم بالمعادين الأشرار، وشنّ الحملة العسكرية ضدهم. وهنا يتوجب إشارتنا إلى أنَّ مردوك–ابلا–ادينا، حفيد ايريبا– مردوخ الذي أصبح ملك بابل بين (٧٦٩–٧٦١ق–م) قد أشير إليه في مراسلات سرجون الثاني بتسمية (ابن ياقين) كونه واحدًا من أفراد قبيلة "بيت– ياكين"[٢٨].

ونتيجة الحملة التي شنّها سرجون الثاني ضد ملك بلاد كلدو ملك "بيت –ياقين"، مردوخ –بلادان، هرب مردوخ وقواته إلى نهر عقنو (Uqnu)، الذي يقع عند مدينة سوسة عاصمة العيلامين متخذين منها ملجأ لهم[٢٩]، وبما أنَّ حدود قبيلة "بيت – ياكين" تحاذي الحدود العيلامية وهذا يعني بإمكان حكام وشعب "بيت–ياقين" اللجوء إلى بلاد عيلام في حال شنّ هجومٍ ضدهم وعدم مقدرتهم في مواجهة تلك القوة يلتجؤون إلى بلاد عيلام التي كانت مستعدةً لتقديم العون من الأسلحة والمأوى لقبيلة "بيت – ياكين"، ضد حكام بلاد آشور، وتمكّن سرجون من هزيمة مردوخ – بلادان، وفرض سيطرته على جنوب بلاد الرافدين كما موضّح في النص الآتي:

((مردوك – ابلا– ايدينا(مردوك–بلادان)، سمع بتقدم جيشي، وحصن قلاعه، وجمع الحشود. دور اثارا...هو..... وشعب كامبولو، الذي سكن إلى جانبه، أحضرهم. وراقب عن كثبٍ عزز الحراسة على تقدّم جيشه. ٦٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من قواته المختارة، عينهم في بداية حشوده، ومدّهم بالشجاعة. رفعوا أسواره أعلى من السابق. حفروا خندقًا من نهر سورابو، وغمروا ضواحيها (أي: المدينة) بأمواجه القوية (أي: أمواج البحر). حاصرت المدينة واستوليت عليها قبل غروب الشمس. ١٦٤٩٠ شخصًا، مع بضائعهم، وخيولهم، وبغالهم، وجمالهم، وماشيتهم، وأغنامهم أخذتهم))[٣٠].

وعلى الرغم من التلف الحاصل في النص إلا أنَّه أوضح مدى شجاعة ملك "بيت – ياقين"، مردوخ –بلادان، وهو يترصد عدوه الملك الآشوري وجيشه، واستعانته بدور –اثارا وشعب كامبولو، الذي يسكن بالقرب من بلاده. إنَّ مردوخ – بلادان ملك "بيت – ياقين" قد تعدّى تأثيره السياسي الفاعل حدود قبيلته ليشمل سائر قبائل أرض البحر الكلدية الأخرى، إذ سعى إلى إحضارهم، وتقدّم جيشه الذي تألف من ٦٠٠ فارس و٤٠٠٠ من قواته الذين وقع اختياره عليهم فوضعهم في المقدمة، بثّ روح الحماسة فيهم وشجعهم فقاموا بحفر الخندق وعلا الماء المدينة، فأخذت الأمواج تتلاطم. إلا أنَّه على الرغم من كلّ الجهود التي بذلها، لكن قوة سرجون الثاني طغت على كلّ التجهيزات التي قام بها مردوخ – بلادان، فسيطر الأول على المدينة وألقى القبض على ١٦٤٩٠ شخصًا أخذهم كأسرى حرب مع كل ممتلكاتهم من خيولٍ وعرباتٍ....

ومن استقراء الكتابات التذكارية للملك سرجون الثاني نجده يذكر مردوخ–بلادان واصفًا إياه بأنَّه هو ذلك الرجل الذي تجاوز كلّ أعدائه في الكراهية القاتلة التي يكنّها له. فعندما كان يرد اسمه في النقوش التذكارية، نراه يتبعه بالأوصاف الآتية:

((بذرة قاتل، دعامة الشيطان المخادع، الذي لم يخشَ من اسم رب الأرباب...نكث القسم الذي أدّاه للآلهة العظام وأوقف إرسال الهدايا لها...العدو المتآمر))(٣١).

وفي نصّ آخر يذكر سرجون الثاني بأنَّه قام بفرض الحصار على "بيت–ياقين" سيطر عليهم وأخذ عائلة مردوخ– بلادان، كأسرى حرب مع كلّ ممتلكاتها، أضرم النيران في (دور – ياقين)، ودمر أسسها. ثم يذكر أنَّه اطلق سراح شعوب بلاد الرافدين، الذين ألقى القبض عليهم مردوك– بلادان نتيجة موالاتهم للآشوريين، وهذا ما اوضحه النصّ الآتي:

((حاصرت دور– ياقين، واستوليت عليها. وعلى زوجته، وابنائه، وبناته، والذهب، والفضة والممتلكات، وكنوز قصره، وكلّ ما كان هناك، وغنائم المدينة الكثيرة، وبقية شعبه المتمرد أيضًا، الذين هربوا من أمام أسلحتي، جمعتهم جميعًا واعتبرتهم غنيمة. دور– ياقين، المدينة الملكية، أشعلت النار فيها، وحطمت سورها العالي، ودمرت أسسها، جعلتها مثل تلة جرفها الطوفان، مواطنو سيبار، وبابل، ونيبور، وبورسبا، الذين كانوا مسجونين هناك بلا ذنبٍ، أطلقت سراحهم وجعلتهم يرون النور))(٣٢).

ويدلّ النص على تمكن سرجون الثاني من السيطرة على كل بلاد بابل بعد أنْ حاصرها واستولى على كلّ ممتلكاتها، وهنا يكون بإمكانه إعلان نفسه ملكًا على بلاد بابل بكلّ سهولةٍ. وبالأخصّ أنَّ سرجون الثاني أمسك بيد الإله مردوخ، الإله العظيم لبلاد بابل وذكر في أحد نصوصه:

((في بابل مدينة الآلهة. دخلت وقلبي مليء بالبهجة والسرور، تعلو وجهي ملامح مشرقة وأمسكت بأيدي الإله العظيم مردوخ))(٣٣).

ويستمر الملك الآشوري سرجون الثاني بذكر حملاته العسكرية وإخضاعه للمدن جميعًا التي كانت على حدود بلاد عيلام، ولاسيما أنَّ ملك "بيت– ياقين" وجيشه حينما كانوا يواجهون صعوبةً في مواجهة أعدائهم يقومون باللجوء إلى بلاد عيلام (٣٤)، وهذا ما أوضحته النصوص:

((بيت– ياقين، شمالاً وجنوبًا، بعيدًا إلى سامونا، وباب – دوري، ودور– تيليت، وبوب، وتيل–حومبا، التي كانت على حدود عيلام، أخضعتها تمامًا لسلطتي))(٣٤).

وفي نصّ آخر يتكلم عن تفوق جيشه في بلاد آشور وعن الأعمال التي قام بها، ولاسيما أعماله التي أنجزها ضد شعوب كلدو وعيلام على الرغم من حدوث تلفٍ في النصّ كما موضّح في النص الآتي:

((أرسل رسوله إلى بيت – ياقين، أثناء وجودي ليحييني، على تفوق جيشي في آشور وعلى الأعمال التي أنجزتها في كلدو وعيلام...))[٣٥].

وبعد هذه الأحداث التاريخية والحملات العسكرية وسيطرة سرجون على بلاد بابل وعلى أراضي عيلام المحاذية لبابل، عمّ الهدوء في السنوات الأخيرة من حكم سرجون الثاني بندرة المعلومات عن العلاقات (البابلية – الآشورية)، فمن المفترض أنْ يكون قد عمّ السلام في الأرجاء ليتولى زمام الحكم فيما بعد ابن سرجون الثاني وخليفته سنحاريب.

ثانيًا: حملات الملك الآشوري سنحاريب على بيت ياقين

أ – الحملة الأولى للملك الآشوري سنحاريب

في بداية حكم الملك الآشوري سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ق-م)، تمكّن مردوخ –بلادان مرةً أخرى من اعتلاء العرش البابلي، وفي الوقت نفسه شكّل تحالفًا مؤلفًا من (الكلدانيين – والآراميين) ثم بعد ذلك وحين استيلائه على حكم بلاد بابل أضفيت تسمية رسمية أشمل ليصبح تحالفًا بين البابليين والعيلامين، وهذا ما أوضحه النص الآتي:

((في بداية حكمي، عندما اعتليت العرش رسميًا، حكمت سكان آشور بالرحمة والفضيلة، مردوك–بلادان، ملك بابل، (ذا القلب الطالح)، مدبر التمرد، والمخطط له، منفذ الشر، ذا الذنب العظيم، انضم إلى جانبه شتروك– ناخونتي (Struck Nahhunte) العيلامي، وأعطاه ذهبًا، وفضةً، وأحجارًا ثمينةً، لذا أمن، جانبه بصفته حليفًا. تورتان ملك عيلام تانانو، القائد الثاني، مع نيركال –ناسير، السوتي، الذي لا يهمل المعركة، ...، ٨٠,٠٠٠ م من حملة الرماة ...، ومعهم خيول، أرسلهم إلى سومر وأكد (بابل) لنجدته. ومردوك– بلادان هذا، مدن...اور، واريدو، وكولاب، وكيسيك، ونيميد– لوكادا، وبلدان بيت – ياكين، وكلّ الكلدانيين، كلّ مَنْ كان هناك، أولئك الذين سكنوا على شواطئ [البحر المالح] [الأراميون الذين لم يكونوا خاضعين، الذين لا يعرفون السكينة[٣٦].

ومدن نيبور، ... وبورسيبا، وكوثا جمعهم ونظمهم للقتال حينها، ولمّا وصلت الأخبار إلى الملك سنحاريب عن هذا التنظيم والتحالف الذي أقامه مردوخ –بلادان. ولاسيما أنّه كان السبب

الرئيس الذي دعا سنحاريب إلى الشروع بشنّ حملته العسكرية الأولى في أواخر عام (٧٠٤-٧٠٢ق-م)، وانطلاقه بجيشه من كوثا إلى كيش، إذ جاء ذلك موضحًا في النصّ الآتي:

((إلى سنحاريب، ذا القلب الجليل، بلغوني بهذه الأعمال السيئة، غضبت كالأسد، وأعطيت... الأمر للسير نحو بابل. ذلك الخبيث، سند الشيطان، سمع بمسيرتي للمعركة، وخيل ورماة العيلاميين، والآراميين والكلديين، مع نيركال- ناسير وقائد العشرة من عيلام، الذين لا يعرفون السكينة، ومعهم حشدٌ غفيرٌ، نظم هؤلاء بشكلٍ تامٍ (قويّ)، وجاء بهم إلى كوثا، وهناك نصب جاسوسًا ليراقب تقدم حملتي. في هذه الأثناء أعددت فرقي(قواتي)، في يوم العشرين من شباتو انطلقت من آشور على رأس جيشي، كالثور الجبار، ولم أنتظر جيشي، ولم أتراجع. أرسلت إلى كيش قادتي وحكامي، مع أوامري: " شقوا الطريق نحو مردوك- بلادان، ولا تتراجعوا، راقبوه عن كثبٍ (شددوا حراسته). "رأى حكامي وخرج مع كل قواته من بوابة زاماما (واشتبك في معركة مع قادتي في سهل كيش. اما مصير قادتي، فقد شنّ العدو هجومًا ضدهم، كان قويًا ولم يستطيعوا الصمود أمامه، أرسلوا برسلهم إليّ لطلب النجدة (بينما أنا كنت) قرب كوثا...))[٣٧].

ويوضّح النصّ غضب الملك الآشوري سنحاريب على ملك بلاد بابل مردوخ -بلادان، وعندما سار الملك الاشوري بحملته، عيّن الملك البابلي جاسوسًا ليكون عينه التي يراقب بها تقدّم سنحاريب وجيشه الغاضب كغضب الأسد. إذ يذكر سنحاريب بأنّه استمر في إعداد جيشه وبتاريخ العشرين من شهر شباط انطلق من آشور، قائدًا جيشه، منطلقًا بلا تراجعٍ، بل ولا يمكن لأحدٍ منعه من التقدم. أثناء مسيره ذاك، أرسل قادته وحكامه إلى كيش، وأمرهم بالتقدم نحو مردوك- بلادان، من دون تراجعٍ وأمرهم بمراقبته عن كثبٍ. وهنا يذكر سنحاريب أنَّ مروخ كان يراهم ويراقب تحركات قواته، ممّا يدلّ على الحكمة والدراية بكلّ الأمور المحيطة به، فضلاً عن قيادته القوية التي جعلته يشتبك مع جيش سنحاريب عند بوابة زاماما، في معركةٍ حدثت في سهل كيش. أصبحت قوات سنحاريب في تلك المعركة في وضعٍ حرجٍ وخطيرٍ جدًا، ما دفعهم إلى طلب النجدة من سنحاريب؛ لشدة قوة هجوم العدو عليهم. ومن حسن حظهم أنَّ الملك الآشوري كان يعسكر بالقرب من كوثا، فشنّ سنحاريب هجومًا على كوثا؛ لإنقاذ قادته من قبضة عدوهم.

وحينما توجّه سنحاريب بحملته ضد مردوخ- بلادان، هرب مردوخ لوحده هذه المرة إلى منطقة الأهوار والمستنقعات في كوزمانو (Guzummanu)، وبذلك التصرف كان قد أنقذ حياته. نتيجةً لذلك استولى سنحاريب على المدينة بكلّ ما فيها من عرباتٍ، ومركباتٍ، وخيلٍ، وحميرٍ، وجمالٍ، فضلاً عن كلّ ما تركوه في ساحة المعركة. وهذا ما أوضحه النصّ الآتي:

((وفي موجة غضبي قمت بالهجوم على كوثا، وقتلت قوات حرس الأسوار مثل الحملان وأخذت المدينة. حصان ورماة العيلاميين، والآراميين، والكلدانيين، وقادة العيلاميين، كذلك نيركال – ناسير مع مواطنيها، المتمردين (المذنبين)، نقلتهم واعتبرتهم غنيمة. غضبت كالأسد واقتحمت كالعاصفة، مع محاربي عديمي الرحمة وانطلقت نحو مردوك – بلادان، الذي كان في كيش. وذلك الإثم، رأى تقدمي من بعيد، وأصيب بالذعر، ترك كلّ قواته، وهرب إلى بلاد كوزمانو. مع كلّ جيوش العلاميين، والكلدانيين، والآراميين، الذين وقفوا إلى جانبه (اعتنقوا قضيته)، وجاءوا إلى نجدته – تمكنت من هزيمتهم وحطمت قواتهم ادينو، ابن زوجة مردوك – بلادان، مع باسكانو، شقيق اياتي ملكة العرب، مع جيوشهم، استوليت عليهم كأسرى أحياء. العربات والمركبات والخيل والبغال والحمير والجمال التي تركت خلال المعركة، استوليت عليها))[٣٨].

وفي نصّ آخر يوضح سهولة دخوله إلى قصر مردوك – بلادان ويصف الفرحة التي كانت تغمره وهو يدخل القصر ويستولي على الممتلكات والموجودات جميعًا التي كانت بداخله، وذكر في النص:

((وبقلبٍ فرحٍ ووجهٍ مشرقٍ سارعت إلى بابل ودخلت قصر مردوك – بلادان، استوليت على الممتلكات الموجودة فيها. فتحت بيت الخزانة. الذهب، والفضة، والأواني الذهبية والفضية، والأحجار الثمينة، والأسرة، ومقاعد المنزل، والمحفات، ومعاييره الملكية، التي كانت مرصعة بالذهب والفضة، كل أنواع الممتلكات والموجودات، التي لا تعد، كنوزًا عديدةً، زوجته، وحريمه، وجواريه، وموظفيه، ونبلائه، وخدمه والموسيقيين من النساء والرجال، وعبيد القصر، الذين كانوا يعملون لتسليته، كل الحرفيين، بعدد ما كان هناك وخدم قصره، أخذت هؤلاء جميعًا واعتبرتهم غنيمة [٣٩].

وعلى الرغم من دخول سنحاريب وقواته لقصر مردوخ– بلادان والاستيلاء على كلّ الممتلكات، إلا أنّه لم يتم العثور عليه كما ذُكر في تقرير حملته الأولى بأنّه لم يتم العثور على مردوك على الرغم من استمرار البحث عنه لمدّة خمسة أيامٍ، فهو لم يترك له أثرٌ يدلّ عليه، بحسب ما جاء في النص الآتي:

((على مدار خمسة أيامٍ، بحثوا عنه، لكن لم يعثروا على المكان الذي يختبئ به))[٤٠],

ب – الحملة الرابعة للملك سنحاريب على بيت ياقين:

في الحملة الرابعة، تذكر النصوص التذكارية بأنَّ الإله آشور منح الملك الآشوري سنحاريب القوة والشجاعة، في جمع جيشه الكبير وإعطائهم الأوامر بالتقدم نحو بيت –ياكين،

وتصف مسار حملته التي تمكن فيها من إسقاط موشزيب – مردوك، (Musezib–Marduk) (٦٩٢–٦٨٩ق–م)، الذي استقر وسط المستنقعات في مدينة بيتوتو، أثناء حملته الرابعة عام (٧٠٠ق–م)) على "بيت ياقين". كذلك وصفت الخوف الذي انتابه من معركته، الذعر الذي أصابه، وانكسار شجاعته (التي مزقت قلبه)، ممّا أدى به إلى الهروب وحيدًا مثل المجرم ولم يشاهد مكانه مجددًا[٤١]. كما يشير النص الاتي:

((في حملتي الرابعة، منحني آشور، الهي، الشجاعة وجمعت جيشي الكبير وأعطيت الأمر بالتقدم نحو بيت – ياكين، في مسار حملتي تمكنت من إسقاط شوزوبي، الكلداني الذي أقام وسط المستنقعات – في مدينة بيتوتو. ذلك أنَّ الخوف من معركتي قد أصابه بالذعر، وكسرت شجاعته (التي مزقت قلبه)، هرب وحيدًا مثل المجرم، ولم يشاهد مكانه مجددًا. أعدت سلطتي إلى الصدارة، واتجهت إلى بيت – ياقين))[٤٢].

يوضّح النص شجاعة الملك الآشوري الذي تمكن من إعادة سلطته إلى الصدارة بتحقيقه الهزيمة موشزيب، القائد الكلداني لبيت – ياقين، المتمرد والثائر على الجيش الآشوري الذي سيصبح ملك بابل، إذ لم يعرف مكان اختبائه.

وفي وصفٍ آخر نقرأ: **((أنّه قد فرّ لوحده مثل السنور البري، ولم يتم العثور على مكان اختبائه))**[٤٣]، دلالة على أنَّ منطقة الأهوار أصبحت تمثل مكانًا مثاليًا للاختباء.

ويستمر الملك الآشوري سنحاريب بوصف الخوف والذعر الذي انتاب مردوك – بلادان، الذي حقق الغلبة عليه في مسار حملته الأولى، تمكنه من تحطيم قواته، الخوف من الجيش القوي الذي قاده سنحاريب، وهجومه المرعب في المعركة، الذي أدى بمردوك – بلادان، أن يلوذ بالفرار بعد أنْ جمع آلهة بلاده جميعًا من أضرحتهم، ورفاة أجداده على متن قاربٍ وهرب مثل الطائر إلى مدينة ناكيت – راكي (Nagite–raqqi) الواقعة وسط البحر، تاركًا أخوته عند شاطئ البحر. وهذا ما أوضحه النص الآتي:

((مردوك– ابلا– ادينا، نفسه الذي غلبته في مسار حملتي الأولى، والذي حطمت قواته، خشي من جلبة جيشي القوي ومن هجومي المرعب في المعركة، فجمع جميع آلهة بلاده من أضرحتهم، وحملهم على متن قاربٍ وهرب مثل الطائر إلى مدينة ناكيت – راكي، الذي يقع وسط البحر..... أخيه من نسل أبيه، تركه عند شاطئ البحر، مع شعب بلاده، جلبت بيت – ياقين، من وسط المستنقعات والقصب، وأخذتهم كغنيمةٍ. عدت وحطمت مدنه، ودمرتها، وجعلت منها أكوام من الخراب. وعلى حليفه، ملك عيلام، صببت الذعر))[٤٤].

ويبدو من النصوص أنَّ ملك بلاد بابل مردوك – بلادان فرَّ وهرب عدّة مراتٍ؛ خوفًا من قوة الملك الآشوري وجيشه الذي يلاحقه باستمرارٍ على الرغم من شجاعة مردوك – بلادان، في مواجهة حملات الملوك الآشوريين التي أنهكته التي أودت به إلى الهروب، ممّا فسح المجال للملك سنحاريب أنْ يشرع بعملياتٍ هجوميةٍ مباشرةٍ على "بيت–ياقين"، التي أودت بهروب مردوك – بلادان، مجددًا إلى منطقة الأهوار والمستنقعات في عيلام.

ج – الحملة السادسة للملك سنحاريب على "بيت – ياقين"

يصف الملك سنحاريب حملته السادسة على "بيت – ياقين"، ففي عام (٦٩٤ق–م)، قرّر سنحاريب معاقبة شعب "بيت – ياقين"، نتيجةً لاستمرار الآراميين في تدبير المؤامرات ضد بلاد أشور التي أذلتهم، فغادر عددٌ كبيرٌ من الآراميين إلى مناطق جنوب بابل واستقروا على سواحل بلاد عيلام؛ ذلك التواجد الذي شكّل نقطة تهديدٍ متواصلةٍ على بابل. وكما يبدو واضحًا، أنَّ أول أهدافه من هذه الحملة تمثلت بمدينة عيلامية وهي مدينة ناكيتو بحسب ما أوضحه النص الآتي:

((في حملتي السادسة اتجهت نحو بيت – ياقين، الذين هربوا من أمام أسلحتي القوية مثل الحمير البرية، الذين جمعوا معا آلهة بلادهم جميعًا من أضرحتها، الذين عبروا البحر العظيم في مشرق الشمس وأسسوا مساكنهم في مدينة ناكيتو في عيلام، عبرت البحر باتجاههم بواسطة السفن الحثية السورية))(٤٥).

وفي نصّ آخر يذكر سنحاريب حملته السادسة ومعاقبته لـ" بيت – ياقين"، إذ توجه نحو مدينة ناكيتو، وناكيتو – دي بينا (Nagitu–di bina)، كما موضّح في النص الآتي:

((إنَّ مدينة ناكيتو، وناكيتو – دي بينا، مدن ملك عيلام التي تقع مساكنها عند الشاطئ الآخر من البحر المر))(٤٦).

وفي نصّ آخر نقرأ أيضًا: إنَّ اللاجئين العائدين لبيت – ياقين:

((عبروا البحر الكبير من جهة مشرق الشمس وأقاموا مساكنهم في مدينة ناكيتو في بلاد عيلام))(٤٧).

وتوضّح النصوص أنَّ أهم سببٍ جعل الملك الآشوري سنحاريب يحارب بيت–ياقين"، لجوئهم إلى بلاد عيلام واستقرارهم في مدينة " ناكيتو؛ لأنّه يعدّ العيلاميين أعداءً لهم ومحرضين ضد بلاد آشور، وأنَّ شعب "بيت – ياقين" لجأوا إلى طلب المساعدة من عدوهم وأنَّ شجاعة سنحاريب وقوة جيشه أدت إلى هروب شعب" بيت– ياقين" مصطحبين معهم آلهة بلادهم، فعبروا البحر العظيم أو الكبير، واستقروا في مدينة ناكيتو، الأمر الذي أثار غضب الملك الآشوري على شعب "بيت – ياقين".

كذلك نقرأ في نصّ آخر جانبًا من حملة الملك سنحاريب عن أراضي ومقاطعات عيلامية وممّا جاء في النص على لسان الملك:

((غزوت ناكيتو، وناكيتو – دي بينا، مع أراضي هيلمو، وبيلاتو وحبايانو، الواقعة على جانب بحر المر، ومقاطعات بلاد عيلام. شعب بيت – ياقين مع الهتهم، وشعب ملك عيلام، نقلتهم ولم أترك منهم متمرد يهرب. وضعتهم على متن قوارب ونقلتهم إلى هذا الجانب، وبدأت طريقي إلى آشور. المدن التي كانت في هذه المقاطعات دمرتها وحطمتها وأشعلت فيها النيران وحولتها إلى حطام وخراب))[٤٨].

والنصّ هنا واضحٌ وصريحٌ، يذكر فيه حملة سنحاريب وشجاعته، وقوة جيشه، وأسلحته القوية التي تمكن بها من تحقيق الانتصار على شعب "بيت – ياقين"، وكذلك على مدن عيلام التي استنجد بها شعب "بيت – ياقين"، وأخذ شعب كلديا أسرى مع آلهتهم وشعب مملكة عيلام، ولم ينجوا منهم أحدٌ. اقتادهم إلى بلاد آشور، وقام بتدمير كلّ المقاطعات، وحطمها وأضرم النيران فيها، لتغدوا كومة حطامٍ وخرابٍ.

رابعًا: الجانب الحضاري والعمراني

لم تقتصر تركيبة المجتمع الذي تمثله قبيلة بيت– ياقين والقبائل الكلدية الأخرى على القوى الريفية الزراعية والبلدان الصغيرة فقط، وإنّما اشتملت أيضًا على مدنٍ مسورةٍ مشيدةٍ بصورةٍ جيدةٍ جدًا. إذ وصفها سنحاريب بحملته الأولى على بابل عام (٧٠٣ق–م)، ذاكرًا أنّه قد حاصر ثماني مدنٍ مسورةٍ ومئة بلدةٍ صغيرةٍ تعود إلى بيت – ياقين[٤٩].

ويبدو واضحًا أنَّ قبيلة بيت– ياقين انتهجت أسلوب الاستقرار بصورةٍ أساسيةٍ في مناطق جنوب العراق. إذ امتهنوا الزراعة، وتربية الحيوانات، فضلاً عن التبادل التجاري داخل المنطقة، وقد أكدت النصوص في السجلات الآشورية، والرسومات البارزة على جدران القصور الآشورية، بأنَّ القبائل الكلدية (بيت– ياقين)، مالوا إلى امتلاكهم لأراضٍ واسعةٍ غنيةٍ بالمياه مارسوا فيها الزراعة مثل: زراعة النخيل وتربية الخيول والمواشي[٥٠]. ومن الجدير بالذكر أنَّ قبيلة بيت – ياقين قد احتلت معظم القطاع الجنوبي من منطقة السهل الرسوبي ضمن مساحةٍ واسعةٍ جدًا من منطقة الأهوار.

إنَّ الثراء الواضح على قبيلة بيت– ياقين الكلدانية، التي حكمت القطر البحري كانت متأتيةً من انتفاعها العظيم من الطرق التجارية عبر الخليج العربي، وقد كانت كلٌّ من أور وأوروك تقعان في موقعٍ معينٍ جعلهما تستفيدان من تلك التجارة. ويبدو واضحًا سبب التدخل

الآشوري الذي حصل في الجنوب، فقد كان من دون شكّ لأجل فرض الاستقرار في تلك المنطقة لصالحهم وبالتالي الانتفاع من تلك الميزات التي تمتعت بها، تلك السياسة التي قادت إلى سيطرتهم على بابل(٥١).

وهكذا تمتعت مملكة بيت–ياقين، بأهميةٍ كبيرةٍ نتيجة موقعها الاستراتيجي ممّا جعلها فاعلةً في النشاط التجاري، والدليل على ذلك، قوائم الهدايا الثمينة والمقدمة في القرن التاسع قبل الميلاد، ومن ثم بعد ذلك في عهد تجلا–تبليزر الثالث، من قبل زعماء القبائل الأرامية كأتاواتٍ مقدمةٍ للآشوريين، إذ شملت أنياب فيلةٍ، أخشاب الأبنوس، وهذا ما يثبت أنَّ تلك القبائل قد فرضت سيطرتها الكاملة على الطرق التجارية المارة في بابل(٥٢)، وعلى هذا الأساس تكون قد استلمت حلقة الوصل مع شبكة الطرق التجارية التي تصل إلى بلاد الرافدين من جهة الشرق، شمال الجزيرة العربية ومصر برا، فضلاً عن العثور على قطعٍ نصيةٍ متنوعةٍ تضمنت معلوماتٍ متفق عليها بشأن إشارتها إلى حقيقة اعتماد المحاور الجنوبية لبلاد الرافدين على مهارة أصحاب المراكب في نقل البضائع، فضلاً عن الاستعمال الواسع للجمال في حملها، إذ اعتمد ازدهار النشاط التجاري لتلك القبائل ولاسيما قبيلة بيت – ياقين، في مناطقهم على عدّة عوامل منها:

١–تواجد الحلفاء العرب في الجهد العسكري الكلدي.

٢–الدفع القوي المتلقي من الدولة العيلامية القائم على أساس المنافع الاقتصادية، في مجال التعاون السياسي والعسكري.

٣–الدليل على وجود اتصالٍ مباشرٍ مع الشرق(٥٣).

وكلّ هذه العوامل تمنحنا صورةً مترابطةً عن شكل التركيبة الكامنة وراء المحاور التجارية الجديدة. ومن الجدير بالذكر أنَّ الثراء الواضح على قبيلة بيت–ياقين الكلدانية التي حكمت القطر البحري، كانت متأتيةً من انتفاعها العظيم من الطرق التجارية عبر الخليج العربي. وهذا ما جعل الملوك الآشوريين يوجهون أنظارهم نحو الجنوب حيث استيطان قبيلة بيت –ياقين ويقومون بشنّ حملاتٍ مستمرةٍ؛ للاستقرار في تلك المنطقة لصالحهم وبالتالي الانتفاع من تلك الميزات التي تمتعت بها تلك السياسة التي قادت إلى سيطرتهم على بابل.

أما من الناحية الثقافية، فقد أحاطت قبيلة بيت–ياقين، بالمسائل والطرق البابلية، بعد فترةٍ وجيزةٍ من استيطانهم في تلك المناطق الجنوبية. إذ حمل زعماؤهم وعامتهم الذين تمّ الإشارة إليهم في النصوص القديمة اسماء بابلية، فضلاً عن الإشارة إلى أشخاصٍ مهمّينٍ من آلهةٍ تنتمي إلى إرثهم المناطقي (السومري– الأكدي)(٥٤)، هو ذلك الموروث الثقافي الآتي من الحضارات السابقة التي نشأت في الإقليم الجنوبي لبلاد الرافدين مثل: السومرية والأكدية. وبما أنّهم أقوامٌ كلدانيةٌ

مستوطنةٌ في هذا الإقليم، فقد تأثروا طبيعيًا بعد فترةٍ وجيزةٍ من استيطانهم هناك وتطبعوا بالإرث الثقافي لتلك الحضارات باختلاطهم وتزاوجهم مع مواطني هذا الإقليم.

فضلاً عن الجانب الديني الذي قام به ملوك بيت–ياقين، فقد ذكر في سجل النقش الأكدي على اللوح الأسطواني الذي عثر عليه في نمرود، قيام مردوك–ابلا–ايدينا الثاني بترميم، معبد الآلهة عشتار في أوروك وبالتحديد ترميم ضريح ننكشزيدا (إله العالم السفلي)، في ذلك المعبد، ويشرح النصّ ايضًا كيف تصالح الإله مردوك مع بلاده، بعد أنْ تركها تخضع تحت سيطرة الآشوريين (السوباريين)، لعدّة أعوامٍ، وكيف اختار الإله الملك مردوك–ابلا–ايدينا، حاكمًا لبابل ليعيد استقلال بابل[٥٥] كما موضّح في النصّ الآتي:

((الإلهة عشتار، سيدة البلدان، أسمى الآلهة، الشجاعة،الآلهة (سيدة ايانا)، التي تسكن في أوروك، التي جمعت لنفسها كلّ المناصب الإلهية (فيما يتعلق ب) أيانا، الذي شولكي، ملكها، كان قد بناه وأصبح قديمًا، و(فيما يتعلق بـ)ضريح الإله ننكشزيدا، الذي أنام، قد أقامه في داخله، (فيما يتعلق بـ)هذا المعبد الذي جدرانه قد انبعجت وحجارته تفتت، والذي انهار متراسه والذي أصبح من الصعب التعرف عليه، (و)الذي لم يجرِ إعادة بنائه في عهد الملوك، السابقين (له)، [في ذلك]الوقت، الملك العظيم الإله مردوك، قد رحل بغضب إلهي عن بلاد أكد، والعدو الشرير، السوباريون، كانوا قد تولوا السلطة في بلاد أكدٍ لسبعة أعوامٍ وما أنْ انقضت الأيام، حتى حلّ موعد التنصيب،(و) الإله العظيم، الإله مردوك، أصبح متصالحًا مع بلاد أكد، التي كان غاضبًا عليها))[٥٦].

وفي نصّ آخر يذكر الإدراك الممتاز للملك مردوك–ابلا–أيدينا، الذي منحه إياه الإله ايا، الخالق، خالق الأشياء، وبحكمته الواسعة الذي منحه إياه الإله نينشيكو، إذ وجّه اهتمامه لأداء الشعائر وإدارة الشعائر بشكلٍ صحيحٍ ولترميم مراكز العبادة والمساكن الإلهية المقدسة الخاصة بآلهة بلاد أكد العظام وهذا ما جاء بالنصّ الآتي:

((كان مهتمًا بمعبد ايانا، مسكن الآلهة عشتار، سيدة البلاد سيدته. (فيما يتعلق بـ) جدار سور ايانا الخارجي في البلاد السفلي و(فيما يتعلق بـ) معبد الإله نينكيزيدا، الذي أنشئ داخله إلى إحدى جوانبه، دمّر متراسها وكشف عن أسسها بتوسلاتٍ شديدةٍ، وصلواتٍ، وبأسلوبٍ إنسانيّ، وضع أسسها (من جديدٍ) وجعلها بصلابة الجبل. رفع أعلاه بطوب الطقوس النقي وجعله يشع مثل ضوء النهار. جعله أكبر من السابق وصمّم هيكله بدهاءٍ))[٥٧].

وفي نصّ آخر يعبّر عن رضا الآلهة عشتار على العمل الذي قام بتنفيذه في إعادة بناء معبدها، نقرأ ما يأتي:

((وعلى هذا الأساس، عندما الآلهة عشتار، سيدة البلدان، تنظر لهذا العمل بالرضا، فعسى أنْ تنعم مردوك-ابلا-ايدينا (الثاني) بحياةٍ طويلةٍ، ملك بابل! عسى أنْ تزيد أعوامه وعسى أنْ يحظى بعمرٍ مديدٍ! بأمرها الجليل، الذي لا يمكن تغييره، عسى أنْ يخضع عند قدميه كلّ أعدائه، وعسى كلّ الملوك، أعداءه، يجلبوا جزيتهم الثقيلة-بغزارةٍ من الجهات الأربعة (من العالم)، محصول الجبل والبحر – إلى شونا (بابل)! عسى أنْ يستلم هداياهم وعسى أنْ يجلبها إلى ايساكيلا، امام سيد الآلهة !عسى أنْ يقوم حكمه في بابل طول الزمان! رأيت النقوش الملكية الخاصة بالملك الذي سبقني (و) الذي بنى ذلك المعبد. لم أغيّر نقوشه الملكية، لكنني بدلاً عن ذلك وضعتها مع كتاباتي الملكية. أيّ شخصٍ في المستقبل- سواء كان ملكان أو ابن ملك، أو حاكم، أو رئيس الإدارة (المعبد)، أو عمدة – الذي، نصبه الإله العظيم، الإله مردوك، وقرّر إعادة بناء ايانا دعه يرى النقش الملكي هذا ودعه يضعه مع نقشه الملكي في المستقبل))[٥٨].

ويوضّح النصّ مسألة حفظ الذكر؛ للحصول على رضى الآلهة التي تمنحهم العمر الطويل، فيذكر مردوخ النقوش التي تركها الملك السابق على جدران المعبد وأنَّ مردوخ عمل على الحفاظ على تلك النقوش بإعادتها على جدران المعبد إلى جانب كتاباته الملكية؛ تجنبًا من نزول لعنات الآلهة عليه في حال إهمال تلك النقوش أو عدم إعادة ترميمها وإعادتها على جدران المعبد فإنَّ الآلهة ستغضب وتنزل لعاناتها عليه.

ومن الجدير بالذكر أنّه تمّ العثور على عددٍ كبيرٍ من الطوب في أوروك تحمل نقوشًا سومريةً توثق ترميم مردوك –ابلا-ايدينا، لمعبد ايانا لأجل الآلهة انانا (عشتار)، وهذا ما أوضحه النصّ الآتي:

((للسيدة، الآلهة انانا، سيدة البلدان، سيدته، مردوك-ابلا-ايدينا الثاني، ملك بابل، سليل اريبا –مردوك، ملك سومر وأكد، أعاد بناء ايانا، معبدها المحبب))[٥٩].

إنَّ للملوك العراقيين هناك استمرارية لعبادة الآلهة التي عبدها سكان بلاد الرافدين منذ عصور دويلات المدن السومرية حتى هذا الوقت واستمرارية عبادة الآلهة نفسها التي عبدها السومريون والأكديون والبابليون.

فضلا عن العثور على طوب في كيش يحمل نقشًا اكديًا، يصف بناء جسرٍ عبر قناة نار-بانيتو على يد مردوك-ابلا-ايدينا الثاني، لأجل الآلهة نينليل. النقش نفسه يوضح أنَّ ايدين-نيركال، حاكم كيش، قد فوّض بمهمة بناء الجسر، والذي على الأرجح هو من نفّذ هذا العمل في الحقيقة. وهذا ما أوضحه النصّ الآتي:

((لآلهة نينليل، السيدة العظيمة، السيدة الجليلة، الأم الرحيمة، التي تسكن في ايكورنيزو("البيت،الجبل المخيف")، الذي يقع في حورساكا (كالاما (...)،سيدته]:مردوك-ابلا-ايدينا، <ملك> بابل،ملك بلاد سومر وأكد، صنع الطوب من أجل الجسر فوق قناة نار-بانيتو،التي من[...] بنى الجسر من أجل ضمان سلامة صحته وحياته، وقدّمها (لها)))[٦٠].

خلاصة البحث:

١- تعدّ القبائل الآرامية من الشعوب السامية والجزرية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية متجهة نحو بلاد بابل، وأسست بيوتاتها في بدايات الألف الأول قبل الميلاد، وكان لهم دورٌ كبيرٌ في القرن الثاني عشر وبداية القرن الحادي عشر. وأنَّ قبيلة بيت-ياقين تعدّ من أكبر وأهم وأشهر القبائل الآرامية التي قامت في حدود القرن التاسع قبل الميلاد. وقد استوطنت قبيلة بيت-ياقين، في منطقة الأهوار في الجزء الغربي من القسم السفلي من بلاد الرافدين، فضلاً عن السواحل الغربية للخليج العربي حتى دلمون (البحرين).

٢- إنَّ المعلومات عن حياة بيت-ياقين الآرامية جميعًا، سواء كانت سياسية اقتصادية واجتماعية مستقاة بالدرجة الأولى من المصادر والحوليات الآشورية منذ أواخر القرن العاشر قبل الميلاد، فضلاً عن النقوش الآرامية.

٣- اتسعت مملكة بيت-ياقين، في عهد الملك (مردوخ بلادان) حينما ضمّ أملاك بابل إلى مملكته.

٤- تمكّن مروخ بلادان، من فرض سيطرته على بابل سبب انحسار القوة الآشورية بعد وفاة شلمنصر الخامس، ولم تكن دائمة السيطرة وبعدها تحولت إلى الملك الآشوري سرجون الثاني ومن ثمّ انتقلت إلى ابنه وخليفته سنحاريب.

٥- حكم مملكة بيت-ياقين، عددٌ من الملوك الذين اتّبعوا أسلوب الكرّ والفرّ أثناء ملاحقة الجيش الآشوري لهم ولجوئهم المستمر إلى بلاد عيلام، الذي يؤدي بالتالي إلى صعوبة تحرك الجيش الآشوري نحوهم.

٦- الموقع الاستراتيجي التي تتمتع فيه قبيلة بيت-ياقين وسيطرتها على الطرق التجارية المارة عبر الجنوب جعلها تتحكم بطرق التجارة نحو الخليج العربي.

٧- إنَّ سبب العداء المستمر بين الآشوريين وشعب مملكة بيت-ياقين هو محاولات بيت- ياقين المستمرة وبالتعاون مع بلاد عيلام؛ لزعزعة النفوذ الآشوري في بلاد بابل، وهذا ما أدى في الأخير إلى نهايتها على يد الآشوريين.

٨- لم تقتصر نشاطات شعب بيت – ياقين، على الجانب السياسي وإنّما كان لهم دورٌ كبيرٌ في الجانب الحضاري سواء العمراني أم الديني، ففي ضوء المخلفات الآثارية التي وصلتنا والنقوش التذكارية التي أوضحت نشاطهم الفاعل في إعادة بناء وترميم معابد الآلهة المهمة وإعادة النقوش على جدران تلك المعابد لإرضاء الآلهة وتجنب غضبها بإنزال اللعنات على كلّ ملكٍ يعبث بالنقوش ولم يعيدها على جدران المعبد.

الهوامش

References

١- محمد حياة إبراهيم، نبوخذ نصر الثاني ٦٠٤-٥٦٢ ق.م (بغداد، ١٩٨٣)، ص ٣٣-٣٤؛ الماجدي، خزعل، المعتقدات الآرامية، القاهرة: الشروق (٢٠٠٠م)، ص١٧.

٢- سليمان، عامر، العراق في التاريخ القديم موجز التاريخ السياسي، ج١، الموصل: دار ابن الأثير للطباعة والنشر (١٩٩٢م)، ص٢٤٦.

٣- الحلو، عبد الله، سوريا القديمة، دمشق (٢٠٠٤م)، ص٦٥٦.

٤- الماجدي، المصدر السابق، ص١٦.

٥- المصدر نفسه.

٦- الدسوقي، خالد، دراسات في شعوب الشرق القديم الاموريون. الكنعانيون. الآراميون. العبريون. الفلسطينيون، جامعة عين شمس(١٩٨٢م)، ص١١٥.

٧- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، لبنان: دار الوراق للنشر(٢٠٠٩م)، ص٥٤٢.

٨- المصدر نفسه.

٩- الماجدي، المصدر السابق، ص١٧؛ سليمان، المصدر السابق، ص٢٤٦-٢٤٧.

١٠- عياد، بولس عياد، الأراميون في الشرق الأدنى القديم، كاليفورنيا: منشورات الكنيسة القبطية الأرثوذوكسية (١٩٨٦م)، ص١٠٠-١١١.

١١- المصدر نفسه، ص١٩٨.

١٢- متي، يوسف، محمد كامل روكان، آرامية العهد القديم قواعد ونصوص، بغداد: منشورات المجمع العلمي، بغداد (٢٠٠٦م)، ص١٦-٢٢؛ الماجدي، المصدر السابق، ص٤٥-٤٧.

١٣- مردوخ- ابلا- ايدينا: هو شيخ قبيلة بيت -ياقين الكلدية كان ملكًا يتحلى بالدبلوماسية، ورد اسمه في التوراة تحت اسم مردوخ-بلادان (سفر الملوك الثاني الأصحاح (٢٠) فقرة ١٢)، ادعى أنّه من عائلةٍ ملكيةٍ وأنّه الوريث الشرعي للملك والده (اريبا-مردوخ) ملك سلالة بابل الثانية، إذ أصبحت له شعبية بين القبائل الكلدية باسترجاعه الأملاك التي تمّ الاستيلاء عليها من الآشوريين، إذ بدأ حكمه في مملكة القطر البحري على غرار أسلافه في قيادة حكم المملكة وهو عدم الرضوخ على دفع الجزية لبلاد آشور في فترة حكم الملك تجلاتبليزر الثالث، ومن هنا نشبت بوادر الحرب بين الطرفين: للمزيد من المعلومات انظر: اوتس، جون، بابل تاريخ مصور، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة (١٩٩٠م)، ص١٧٧-١٧٨؛ فتوحي، عامر حنا، الكلديون.. الكلدان.. منذ بدء الزمان ٥٣٠٠ ق.م- الآن، ط٢، ب-ت، ص٥٩-٦٠.

14- Grant, Frame., Babylonia 689-627B- C, political History, Nedrland, 2007, p.170.

15- Ibid, p.193.

16- Ecancik-Kirsch bouam, M. van Ess,and J-Marzahun (eds)., Babylon: On the Aramean an Chaldean Preserce in southern Mesopotamia(Babyion: Wissens kultur in Orient and Okzident), Berlin(2011);p.18.

17- Ariel. M; Bagg, the unquerble Country: the Babylonian Marshes in the Neo-Assurian Sources, Heidelberg University, Germany (2019); p.14.
18- Ibid; p.56-54.
19- Grant, Frame., ”Rulers of Babylonia from the second dynasty of lsin to the end of Assyrian domination(1157-612)’’ in: the Royal Inscriptions of Mesopotamia, vol.2,Canada:University of Toronto Press,(2002);p.114; Grant. Frame; the political History and Historical Gegraphy of the Arameans, Chaldeans, and Arab tribes in Babylonia in the Neo-Assurian period, University of Pennsylvania (1992) p.98.
20- Birinkman, ”Elamite Military Aid to the Mardoch Baiadan in “ JNES, vol, xxIv (1965)., p.221.
21- Gray, v. Smith., the Destruction of Babylon in gsaiah 46-47, JETS 58/3,(2015)., p22; Frame, Grant., op-cit., p.135.
22- ibid; Ariel M.Bagg., The Babylonian Marshes in Neo- Assurian Sources, Heidelberg University, Germany, (2019), p.97.
٢٣- ساكز، هاري، قوة آشور، ترجمة عامر سليمان، منشورات المجمع العلمي: بغداد (١٩٩٩م)، ص١٣٥- ص٣٦١.
24- Dezos; the Assyrian army II. Recruit and logistic (Budapest: Eotvos University press 2016)., p. 40; Gray. v, Smith., op-cit., p.24.
٢٥-اوبنهايم، ليو، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، دار الحرية للطباعة – بغداد (١٩٨١م)، ص٢٠١.
26- Grayson, A.K., Assyrian and Babylonian chronicles (Indiana: Eisenbrauns, (2000)., p75.
٢٧- رو، جورج، العراق القديم، ترجمة حسين علوان حسن، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد (١٩٨٦م)، ص٤١٥-٤١٦.
28-Luckenbill, D., op- cit., p.14.
29-Josette, Elayi., Sargon II, King of Assyria,USA(2017).,p.18.
30-Ariel, M.Bagg., op-cit.,p.77.
31-Luckenbill, D., op-cit., p.15.
32-Josette, E., op-cit., p16.
33- Luckenbill, D., op-cit., p.34.
34-ibid., p.184.
35-Mogens. Trolle, Larsen.,the City- States of the Early Neo-Babyloian period,(presented by: Jean-Jacques Glassner.,p.118.
36-Luckenbill, D., op-cit., p.21.
37-E. Cancik-Kirschbaum,M.van Ess,and J.Marzahun(eds),op-cit.,p.18.
38-Luckenbill, op-cit., p.128.
39-Ibid., p130.
40-Ibid., p. 131-130; Classner, J.J., ’’Mesopotamia” in: writings from the ancient world, vol.9 (Atlanta: society of Bibical Literature, (2004).,p.197.
41-Luckenbill, D., p.131.
42-Ariel, M., op-cit.,p.87.
43-Ibid., p.87.
44-Luckenbill, D., op-cit., p.121.
45-Ariel, M., op-cit., p.89.

46-Ibid., p.122.
47-Ibid., p.123.
48-Ariel. M., op-cit., p.97.
49-Ibid, p.98.
50-Mogens. T.L., op-cit,. p.18.
51-John.p. Nielsen.,Sons and Descendents, Asocial History of King Groups and family Names in the Early New-Babylonian period, (747-626 B-C), Boston, (2011).,p.13-11.
52-E. Cancik- Kirschboum,M.van Ess,and J.Marzahun(eds)., op-cit.,p.21.
53-Ibid, p.24-23.
54-Frame, Grant, op-cit., p.136.
55-Frame, Grant., op-cit., p.137.
56-Ibid, p.138
57-Ibid.
58-Ibid, p.141.
59-Ibid, p.142.
60-Ibid, P.143.